ما هي الحكمة المتعالية؟[١]

السيّد حسين نصر [٢]

ترجمة فاطمة محمّد زراقط[٣]

لم يكـن الملّا صدرا أوّل من أوجد لفـظ «الحكمة المتعالية»، لكنّه هو الذي هذّبه وشذّبه ليسبغ عليه مداليلـه وأفاهيمه الصدرائيّة، لتضحـى الحكمة المتعالية، إذ ذاك، مرتبطةً باسـم الملّا صدرا نفسه. تحـاول هذه المقالـة أن تعرّج على المباني الأساس التي ابتنت عليهـا مدرسة الحكمة المتعالية، مقدّمةً إيّاهـا بقالب يقارن بينها وبين المدارس الفلسفيّة السابقـة عليها، لا سيّما مدرسة الإشراق والمشّاء، مقارنة ستتيح لنا، تاليًا، النفاذ إلى أركان هذه المدرسة من مسبار المدارس التي سبقتها.

المفردات المفتاحيّة: الحكمة المتعالية؛ الملّا صدرا؛ ابن سينا؛ السهروردي؛ الطبيعيّات؛ الإلهيّات.

لقـد استخـدم متصوّفـة من طـراز القيصري لفـظ «الحكمة المتعاليـة» قبل صـدر المتألّهين الشيرازي بزمن. بل وورد هذا اللفظ في أعمال مشايخ من أعلام الفلسفة المشّائيّة على غرار قطـب الدين الشـيرازي[٤]. إلّا أنّ المعنى المصاحب لهذا اللفظ، في هذه السرديّات، يختلف

(١) الفصل الخامس من كتاب **صدر الدين الشيرازي وحكمته المتعالية**؛ للمزيد انظر،
S. H. Nasr, *Sadr al-Dīn Shīrāzī and his Transcendent Theosophy* (Tehran: Institute for Humanities and Cultural Studies Affaires, 1997).

(٢) أستاذ الدراسات الإسلاميّة في جامعة جورج واشنطن في الولايات المتّحدة الأميركيّة.

(٣) معهد المعارف الحكميّة للدراسات الدينيّة والفلسفيّة، بيروت.

(٤) يقتبـس مـلّا صدرا في كتابه **شرح الهداية** بعضًا من شروحات قطب الدين الشيرازي علـى قانون ابن سينا ليُظهر مدى تجذّره [أي ابن سينا] في «الحكمة المتعالية»، فيقول: «إنّ الشيخ ولا غيره من الحكماء الراسخين في الحكمة المتعالية ذهبوا واعتقدوا [بـ]أنّ المـدرك للمحسوسات الجزئيّة هو الحواسّ الخمس». للمزيد انظر، ملّا صدرا، **شـرح الهداية** (طهران: ١٣١٣ هـ. ق.)، الصفحة ١٩٥.

ويُذكر أن أورد قطب الدين الشيرزاي لفظ «الحكمة المتعالية» في كتاب **درّة التاج**، وكشف السيّد جلال الدين الآشتياني في رسالة أبرقها إلينا أنّ الحكمة المتعالية تشي بالحكمة الإلهيّة التي عبّر عنها مختلف الفلاسفة، وكذا استُخدمت [كما الحكمة

عــن مفهوم الحكمــة المتعالية الذي بسط له الملّا صدرا نفسه ومن تتلمذ على يده في ما بعد. إذ اختــطّ تلامذة صــدرا معنًى محدّدًا للحكمة المتعالية بلحاظ ارتباطهــا بالاشتغال الفلسفيّ والمتافيزيقيّ الصدرائيّ الجديد. فمن المشروع إذًا، في هذا السياق، الخوض في معنى الحكمة المتعالية ومبانيها، لنبيّن، من ثَمَّ، الأفكار التي تولدت عنها.

يتألّــف مصطلــح «الحكمــة المتعالية» من لفظــين: (١) الحكمــة، و(٢) المتعالية. أخذ هــذا المصطلح بالانتشار عندما بــدأ تلامذة صدرا باستخدامه للدلالــة على مدرسة صدرا الفلسفيّــة، علــى الرغم من استخدام صدرا نفسه لهذا اللفــظ إيّاه من قبل. وبعد مرور جيل كامل على الملّا، أطلق عبد الرزّاق اللاهيجي، وهو صهر صدرا وأحد ألمع تلامذته، وصف الحكمة المتعالية على الفلسفة الصدرائيّة[٥]. وفي الفترة القاجاريّة انتشر المصطلح على نطاق واسع، فالملّا هادي السبزواري، مثلًا،لم يقف في **شرح المنظومة**، ولو لهنيهة، كيما يبيّن سبب استخدام لفظ «الحكمة المتعالية» كاسم للمدرسة الصدرائيّة[٦].

وإذا مــا محّصنا كتابات ملّا صــدرا نفسه، لن نعثر في أيّ منها على فقرة يسمّي فيها الملّا مدرستــه بـ«الحكمة المتعالية». استخدم صدرا هذا المصطلح بالذات، حقيقةً، لعنونة عملَين اثنَــين له. أمّــا الأوّل فهو مؤلّفه الشهير بـ«**الحكمة المتعالية في الأسفــار العقليّة الأربعة**»، والثاني، وهــو العمل الأخير للملّا، بعنوان **الحكمة المتعالية**[٧]. حتّــى أنّ استخدام لفظ الحكمة المتعالية في **الشواهــد الربوبيّــة**[٨] كان في سيــاق الإشارة إلى كتاب مــلّا صــدار الأخير لا إلى منظومته

الإلهيّة] على نطاق واسع. يقول الآشتياني: «حكمت متعاليه كه همان حكمت الهى روش اهل تحقيق باشد در همه جا قبل از ملّا صدرا به جشم مى خورد»، [يمكن ملاحظة الحكمة المتعالية، التي هي الحكمة الإلهيّة، أنّى حللنا قبل ملّا صدرا].

وقــد كتب ملّا شمســا الجيلاني [شمس الدين الجيلاني]، وهــو ممّن عاصروا الملّا صدرا، وخالفــوه في كثير من أفكاره ومعتقداته،كتابًا بعنوان **الحكمة المتعالية**.

(٥) نُشرت رسالة عبد الرزّاق اللاهيجي إلى صدرا في، جواد مصلح، **فلسفه عالي يا حكمت صدر المتألّهين** (طهران: دانشگاه طهران، ١٣٧٧ هـ. ق.)، الجزء ١ (**رساله وجود**).

(٦) إذ شــرح السبــزواري البيت الثامن من المنظومة، «لاقت برسم تمــداد النور»، قائلًا: «**لاقت** أي الحكمــة المتعالية أو المنظومة باعتبــار اشتمالها على مسائل الحكمة المتعاليــة [...]». للمزيد انظر، هادي السبزواري، **شــرح المنظومة**، تحقيق مهدي محقّق وتوشيهيكو إيزوتسو (طهران، ١٩٦٩)، الصفحة ٣٩.

وفي الترجمــة العربيّة استفدنا من، هادي السبزواري، **شرح المنظومــة**، تعليق آية الله حسن زاده الآملي، تقديم وتصحيح مسعود طالبي، الطبعة ١ (طهران: نشر ناب، ١٩٩٢)، الصفحة ٥٢. المترجم.

(٧) قدّم السيّد جلال الدين الآشتياني لهذا الكتاب في طبعته الفارسيّة، فيما قدّم له السيّد حسين نصر في ترجمته الإنكليزيّة.

(٨) يقــول مــلّا صــدرا في ما خصّ إدراك النفس بالمعقــولات الكلّيّــة: «[...] ولهذا بسطنا القــول فيها في **الأسفــار الأربعة** بسطًــا كثيرًا، ثمّ **بالحكمة المتعاليــة** بسطًا متوسّطًا». انظر، صدر الدين بن محمّد الشيرازي، **الشواهد الربوبيّة**، تقديم جلال الدين الآشتياني (مشهد، ١٩٦٧)، الصفحة ٣٤.

ومدرسته الفلسفيّة. وثَمَّ سببَين اثنَين دفعا تلامذة ملّا صدرا إلى إطلاق لفظ «الحكمة المتعالية» على اشتغاله الفلسفيّ، وهما: (١) عنوان كتاب **الأسفار**، وفيه إشارة إلى وجود مدرسة قُذف بها بعيدًا بفعل المعتقدات المتافيزيقيّة، مضافًا إلى أنّ لفظ «في»، (**في الأسفار العقليّة الأربعة**)، الذي يشي بسفر نحو مرسًى من اليقين؛ و(٢) ثَمَّ دروس شفويّة، ألقاها الشيخ نفسه، يشير فيها إلى أنّ المقصد من الحكمة المتعالية ليس بعض كتبه فحسب، بل مدرسة صدرا بعامّة. يتعذّر علينا، بالطبع، إقامة دليل مكتوب على هذا السبب الأخير، لكنّ أبرز مشايخ هذه المدرسة في إيران اليوم يثبتون صحّة هذا المدّعى، فهم تناقلوا الحديث الشفويّ لصدر المتألّهين الذي تضايف مع كتابات بين أيديهم عبر سلسة من المدرّسين تمتدّ جذورها إلى ملّا صدرا نفسه، ويُعدّ هذا خير دليل على مقبوليّة هذا المدّعى.

وكذا بات لفظ الحكمة المتعالية يشير، حكرًا، إلى مدرسة معيّنة من الثيوصوفيّة التقليديّة، رفع قواعدها صدرا نفسه، وهي تسمية برزت مع عصر صدرا واستطالت حتّى يومنا هذا. وتعدّ الحكمة المتعالية التسمية الأكثر ملاءمةً لمدرسة صدرا، لا لأسباب تاريخيّة فحسب، بل لأنّ معتقدات ملّا صدرا تدور في محور الحكمة بما هي هي، والرؤية الفكريّة للمتعالي التي توصل إلى المتعالي نفسه. وعليه، تعدّ «الحكمة المتعالية» ملاك المدرسة الصدرائيّة وذلك لأسباب تاريخيّة ومتافيزيقيّة في آن.

وإذا رمينا إلى فهم ملّا صدرا للحكمة المتعالية يجدر بنا التوقّف عند تعريفه للحكمة، أو للفلسفة[٩]. فعندما يبسط صدرا الحديث عن الحكمة فهو، بذلك، يقصد الحكمة المتعالية لا غير، ذلك أنّ الحكمة، في نظره، هي الحكمة المتعالية التي بسط لها. ويجدر بنا الإشارة، ها هنا، إلى أنّ ملّا صدرا، كما الفلاسفة المسلمين الأوائل، بل وأكثر، اضطلع في بيان الفلسفة والحكمة ومعانيهما. إذ أسهب صدرا في شرحهما في كثير من كتبه، وما برح يعرّفهما في غير مرّة، معتمدًا في تعريفاته وشروحاته على أمّهات الكتب، جامعًا مختلف

وفي الترجمة العربيّة استفدنا من، صدر الدين بن محمّد الشيرازي، **الشواهد الربوبيّة**، تحقيق جلال الدين الآشتياني (قم: بوستان كتاب، ١٣٨٢ هـ. ش.)، الصفحة ١٥٨. المترجم.

(٩) رأى ملّا صدرا، كما الفلاسفة المسلمين المتأخّرين في بلاد فارس أنّ الحكمة والفلسفة مرادفَين لمفهوم واحد، على عكس الحقبات الأولى من الفلسفة الإسلاميّة، حيث ميّز عدد لا بأس به من الفلاسفة وعلماء الكلام، على غرار فخر الدين الرازي، بين الحكمة والفلسفة. للمزيد انظر،

S. H. Nasr, An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines (London, 1978), prologue.

الرؤى والمشارب الفلسفيّة في نسق فلسفيّ خاصّ به. ومن أشهر ما قاله في تعريفه للحكمة إنّها: «صيرورة الإنسان عالمًا عقليًّا مضاهيًا للعالم العينيّ، ومشابهةً لنظام الوجود»[١٠]. وفي تعريف أكثر إسهابًا للفلسفة في **الأسفار** كتب صدرا، مردّدًا أصداء [الفلاسفة] من أفلاطون إلى السهروردي،

> إنّ الفلسفة استكمال النفس الإنسانيّة بمعرفة حقائق الموجودات على ما هي عليها، والحكم بوجودها تحقيقًا بالبراهين لا أخذًا بالظنّ والتقليد، بقدر الوسع الإنسانيّ، وإن شئت قلت نظم العالم نظمًا عقليًّا على حسب الطاقة البشريّة لتحصيل التشبّه بالبارئ تعالى[١١].

وقد ميّز الميرزا مهدي الآشتياني[١٢]، وهو من أبرز شُرّاح مدرسة ملّا صدرا طوال القرن الماضي، الحكمةَ المتعالية عن غيرها من المدارس الفلسفيّة الأولى، موضحًا في أحد تعليقاته أنّها: «هي [أي الحكمة المتعالية] المشتملة على توحيد الوجود بخلاف حكمة المشّاء، فإنّ فيها توحيد الوجوب فقط لا توحيد الوجود»[١٣].

وبالنظر إلى تعريفات ملّا صدرا الحكمة، وإن هي إلّا الحكمة المتعالية، مضافًا إلى حواشي الميرزا مهدي الآشتياني عليها، نخلص إلى أنّ الحكمة مبنيّة على مرتكزات ومبانٍ محض متافيزيقيّة، يُمكن النفاذ إليها عن طريق الكشف أو الذوق أو الشهود، مقدّمةً بمنهج عقليّ لا عقلانيّ، مستفيدةً من البراهين والدلائل العقليّة. ويظهر، كذلك، أنّ هذه الحكمة ترتبط، أكثر ما ترتبط، بالتحقّق، بتبديل الذات التي تتلقّى المعارف والعلوم. وبعد، إذ لدى الغوص في كتابات ملّا صدرا نستشفّ أنّ المناهج الآيلة إلى تحقّق هذه المعرفة مرتبطة بالشرع، وأنّه يمكن النفاذ إليها بلا غير الوحي.

---

(١٠) راجع مقدّمة السيّد جلال الدين الآشتياني **للشواهد الربوبيّة**، الصفحة ٧. وللمزيد عن تعريفات الحكمة والفلسفة عند ملّا صدرا وفلاسفة آخرين، انظر،

S. H. Nasr, "the Meaning and Role of Philosophy in Islam," *Studia Islamica* **37**, 1973, pp. 57-80; cf. S. H. Nasr, *The Tradition of Islamic Philosophy in Persia* (forthcoming).

(١١) صدر الدين الشيرازي، **الحكمة المتعالية في الأسفار العقليّة الأربعة** (طهران، ١٣٨٧ هـ. ش.)، الجزء ١، الصفحة ٢٠.

(١٢) للمزيد عن الميرزا مهدي الآشتياني، انظر مقدّمة توشيهيكو إيزوتسو T. Izutzu للترجمة الإنكليزيّة لكتاب،

M. ʾĀshtiyānī, *Commentary on Sabzawārī's Sharḥ-i Manzūmah* (Tehran, 1973).

(١٣) أنا مدين للأستاذ عبد الجواد فلاطوري الذي زوّدني بهذا التعليق، فقد جمع الأستاذ فلاطوري تعليقات الميرزا مهدي على شروح داوود القيصري **لفصوص** ابن عربي، ودوّنها كتقريرات في الطبعة الحجريّة لكتاب **الفصوص** (الصفحة ١٦)، وزوّدنا بها لبيان ارتباطها بالحكمة المتعالية، مشكورًا على ذلك.

إذًا، ثَمَّ مرتكزات أساس للحكمة المتعالية، ألا وهي: (١) الكشف أو الذوق أو الإشراق، و(٢) العقل أو الاستدلال، و(٣) الشرع أو الوحي. ويكمن الاشتغال الصدرائيّ في الجمع بين المعارف المستنبطة من هذه المصادر الثلاث. يهدف هذا الاشتغال إلى تشذيب المعرفة التي يمكن النفاذ إليها عن طريق التصوّف، والإشراق، والفلسفة العقلانيّة (أي فلسفة المشّاء في عيون صدرا)، والعلوم الدينيّة، متضمّنةً علم الكلام[١٤]. تُختطّ معالم الحكمة المتعالية وتتبلور بالمقارنة مع كلّ من هذه الفروع من العلوم الإسلاميّة التقليديّة هذه[١٥].

وقد بيّنا سابقًا، في معرض الحديث عن مصادر معتقدات صدرا، مدى تداخل تعاليم صدر المتألّهين مع بعض المتصوّفة من أمثال ابن عربي، وصدر الدين القونوي، وعبد الرزّاق الكاشاني، وداوود القيصري، وثلّة من مشايخ مدرسة ابن عربي. وإذا كان لا بدّ من مقارنة تعاليم صدرا مع تعاليمهم، يمكن القول بأنّ المتافيزيقيا الصوفيّة لأولئك الشيوخ هي النسخة الفكريّة لرؤيتهم الروحيّة. فالمتافيزيقيا عند ابن عربي تتمثّل، كلّ ما تتمثّل، على شكل حزم من نور، كلّ منها يضيء جنبةً من مظاهر الحقّ. ويرى ملّا صدرا إلى هذه الحزم النورانيّة على أنّها إشراق أكثر ثباتًا وسيّاليّةً. يسعى صدر المتألّهين إلى إيجاد نسق متافيزيقيّ ممنهج، إلى تقديم براهين عقليّة، وإلى بيان بعض الأمور التي إمّا بقي المتصوّفة الأوائل في صمت مطبق حيالها، أو اعتبروها هبةً من الله ونتاجًا لكشوفاتهم الروحيّة. لم يُخالف ملّا صدرا في تعاليمه تعاليم ابن عربي بلحاظ المسائل الجوهريّة، كما خالف بعضًا من أطروحات المشّاء والإشراقيّين، ما خلا مسألة الشرّ، ومسألة القضاء والقدر، إذ قاربها صدرا مقاربةً مختلفة عن ابن عربي. وبعد، إذ أفرد صدر المتألّهين لمسائل عدّة لم يتطرّق إليها ابن عربي ومدرسته، لكنّهم ألمحوا إليها، لمامًا، في كتاباتهم. وعليه، يمكن القول بأنّ ملّا صدرا قد قدّم مبانٍ أكثر منطقًا ومنهجةً لتعاليم مدرسة ابن عربي الصوفيّة المتافيزيقيّة. وفي الواقع، لم يكن ملّا صدرا من ألمع الفلاسفة والمتألّهين الإسلاميّين فحسب، بل يجب اعتباره على أنّه كان من أبرز مَن علّق على ابن عربي وتلامذته.

وإبّان المقارنة بين الحكمة المتعالية الصدرائيّة وحكمة الإشراق، عند السهروردي،

(١٤) أوضح ملّا صدرا في مقدّمة **الأسفار** وفي **كسر أصنام الجاهليّة**، أهمّيّة الإيمان والرياضات الشرعيّة في قمش الحكمة، التي هي من العلوم الإلهيّة، والتي تكتسي، أكثر ما تكتسي، في الوحي وفي جوهر النفس الإنسانيّة.

(١٥) ترى العلوم الإلهيّة التقليديّة إلى التصوّف، في جنبته النظريّة، على أنّه «علم»، أمّا في جنبتة التطبيقيّة فهو مرتبط بطريقة العيش والوجود، وبالتالي فهو، إذ ذاك، مرتبط بقطب الوجود لا المعرفة، ولا يمكن اعتباره علمًا بلحاظات العلم.

نتوافر على موارد تجانس، بسطنا الحديث عنها، وكذا على موارد تضادّ تسعفنا في فهم الحكمة المتعالية نفسها. لا غرو أنّ ملّا صدرا أدرك، في عين وجوده، أنّه مثال المتألّه الذي اختطّه السهروردي، والذي انكبّ على بيانه[١٦]. وقد تفوّق صدرا على السهروردي في وضع مبنًى عقليّ للمعرفة التي تفيض من الكشوفات الروحيّة. ويدين صدرا، أكثر ما يدين، في مسعاه هذا، إلى السهروردي الذي كان أوّل من خطى الخطوة الأولى في هذا الطريق. لكنّ صدرا تابع المسير حتّى النهاية، فأفلح في الاشتغال في كثير من المسائل، أكثر من السهروردي، وعالجها بعمق.

كما لم يتّخذ الرجلان الموقف نفسه حيال ابن سينا ومدرسة المشّاء. فعلى الرغم من تعرّف السهروردي إلى ابن سينا، وكتابته عدًدا لا بأس به من الأعمال، على غرار **التلويحات والمطارحات**، التي هي، في الواقع، إعادة صياغة لتعاليم ابن سينا، فقد فنّد في **قصّة الغربة الغربية**[١٧] و**حكمة الإشراق**[١٨] بعض آراء ابن سينا. أمّا الملّا صدرا، فعلى الرغم من المآخذ التي حملها على فلسفة المشّاء، فقد كان من كبار المعلّقين على ابن سينا، وتمكّن من إدخال تعاليم ابن سينا في ملاك «الحكمة المتعالية» بخلاف السهروردي الذي أخفق، أحيانًا، في التوفيق بين حكمة الإشراق وفلسفة المشّاء. وفي وقت اعتبر فيه السهرودري الفلسفة المشّائيّة قاعدةً أساس لفهم حكمة الإشراق وبيانها، اعتبرها ملّا صدرا مبحثًا أُضيف، بعناية، إلى صلب نسيج الحكمة المتعالية.

ثَمَّ، لا محال، مائز بين مرتكزات حكمة الإشراق والحكمة المتعالية. وعودًا على بدء، يعود الفضل إلى السهروردي الذي كان أوّل فيلسوف مسلم ليقتبس آيٍ من **القرآن الكريم** في أعماله الفلسفيّة، وسعى سعيًا حثيثًا إلى التأليف بين شروحات الآيات القرآنيّة المُنزلة ومبادئ الحكمة. ولكنّ الملّا صدرا هو من أكمل هذه المقاربة، وهذا النهج، جامعًا بين آيات **القرآن**

(١٦) وللمزيد عن مفهوم المتألّه عند السهروردي، انظر،
Suhrawardī, Ḥikmat al-'ishrāq, in H. Corbin (ed.), *Oeuvres philosophiques et mystiques*, vol. 1 (Tehran-Paris, 1952), p. 12.
فعندما لُقّب الملّا صدرا بـ«صدر المتألّهين» كان يُقصد بذلكَ المتألّهَ الذي اختطّ السهروردي معالمه. وبالتالي، فإنّ اللقب الذي يُعرف به الملّا في معظم الحلقات التقليديّة في بلاد فارس، إلى يومنا هذا، أطلقه عليه السهروردي – ولو بنحو غير مباشر، السهروردي الذي مهّد الدرب ليضحى وجود أعلام من قبيل الملّا الشيرازي ممكنًا.

(١٧) *Oeuvres philosophiques et mystiques*, vol. 1, op. cit., pp. 275-6.

(١٨) بسط السهروردي المقالة الثالثة من **حكمة الإشراق** لتهفيت آراء المشّائين، لا سيّما تعاليم ابن سينا ومدرسته.

الكريم والأحاديث، من جهة، ونسقه الحكميّ، من جهة أخرى، بأسلوب غير مسبوق. وبعد، إذ ثَمَّ مائز آخر، وهو أنّ السهروردي ركن إلى الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة، أمّا ملّا صدرا فقد لجأ إلى أحاديث الأئمّة الاثنى عشر، على غرار **نهج البلاغة** لـ[لإمام] عليّ، [عليه السلام]، والأحاديث الواردة في **أصول الكافي** للكليني، مضافًا إلى **القرآن** والأحاديث النبويّة. ويعدّ ملّا صدرا من أبرز مفسّري **القرآن الكريم** بحقّ، إذ اعتبُر من ألمع المفّسرين على مداد التاريخ الإسلاميّ، وامتاز عن غيره من الفلاسفة المسلمين.

وعند الغوص في نقاط الاختلاف بين الفلسفة الصدرائيّة والفلسفة السهروردية نستشفّ أنّ مدرسة صدرا، على الرغم من تضايفها مع الحكمة الإشراقيّة في نقاط عدّة، فهي تختلف عنها في غير مسألة، سنعرض أبرزها في هذه السطور. نعم، لا غرو أنّ الاختلاف الأبرز يكمن في مبحث أصالة الوجود عند ملّا صدرا على عكس أصالة الماهيّة عند السهروردي. يرى هنري كوربان إلى هذا المائز على أنّه فتيل «ثورة» أذكاها ملّا صدرا في سرديّات الفلسفة الإسلاميّة[١٩]. يؤول هذا الاختلاف، بدوره، إلى اختلاف في رؤية كلّ من صدرا والسهروردي إلى مسألة الثابت والمتغيّر، ومراتب الوجود، والمعاد، وغيرها، وتفحّص بسيط لتعاليم كلّ منها يُظهر هذا الاختلاف[٢٠].

وبعد، إذ ثَمَّ مائز آخر بين صدرا والسهروردي بلحاظ اختلاف نظرة كلّ منهما إلى عالم

(١٩) انظر مقدّمة هنري كوربان لكتاب **المشاعر** لملّا صدرا،

H. Corbin, *Le Livres des pénétrations métaphysiques* (Tehran-Paris, 1964).

لقد أشرنا في كتابات سابقة لنا أنّه لمّا ذهب السهروردي إلى اعتبار النور عين الوجود، فهو، بعد، يقبل بـ«أصالة الوجود»، ذلك أنّ حقيقة الموجودات، كلّ الموجودات، كما يرى السهروردي، تكمن في النور الذي ينظم محض جوهرها. ولكن لا نسترِيب في اختلاف المعتقدات الأنطولوجيّة بين السهروردي وصدرا، كليهما، وذلك لاختلافَ تحليل كلّ منهما لهذا المبحث. للمزيد، انظر،

S. H. Nasr, *Three Muslim Sages* (Cambridge, 1964), pp. 69-70; and idem, "Suhrawardī," in M.M. Sharif (ed.), *A History of Muslim Philosophy*, vol.1 (Wiesbaden, 1966), p. 385 on.

(٢٠) لا نرم هنا، في هذا السياق، إلى إقامة مقارنة تفصيليّة مسهبة بين الحكمتين، بل إلى إظهار السمات الأبرز للحكمة المتعالية من خلال مقارنتها بالمدارس السابقة الوجود في الفكر الإسلاميّ. وعندما تبدأ المدارس الفلسفيّة الإسلاميّة بالانتشار شيئًا فشيئًا، عندها فحسب، يصبح من الحريّ بالباحثين أن يعدّوا دراسات دقيقة مقارنة بين مختلف المدارس الفلسفيّة الإسلاميّة نفسها، وبينها وبين المدارس الفلسفيّة التقليديّة في الشرق والغرب، سواء بسواء. للمزيد، انظر،

S. H. Nasr, "Condition for meaningful comparative philosophy," *Philosophy East and West*, **22**:1, Jan. 1972, pp. 53-61; See, also, S. H. Nasr, *Islam and the Plight of Modern Man* (London, 1976), chapters 3 and 4.

الخيـال. وهنا نكتفي بالقول بأنّ السهروردي كان من أوائل الفلاسفة المسلمين القائلين بأنّ هـذه الخاصّيّة من النفس الإنسانيّة مجرّدة مـن البدن، وبالتالي، فهي لا تبرح قائمةً بعد موت الجسد. لكنّه، أي السهروردي، لم يعترف بوجود نظير كونيّ لهذا الخيال المنفصل، بخلاف ملّا صدرا الذي آمن بالخيال المنفصل والخيال المتّصل على السواء.

وأخـيرًا، يبتعد ملّا صدرا في فلسفته الطبيعيّة عن رؤى السهروردي، فيقترب من مادّيّة ابن سينا. لكنّه يقارب هذه المبحث في رحاب مبدإ الحركات الجوهريّة، وهو من مرتكزات الحكمـة المتعاليـة. حدى هـذا المبدأ بصـدرا إلى بيـان مختلف جنبـات الفلسفـة الطبيعيّة، وكـذا المعـاد، بمنهج بعيد كلّ البعد مـن حكمة الإشراق، لكن لا غبار علـى مديونيّة صدرا للسهرودري ها هنا. فلم يكن ملّا صدرا ليكون لولا وجود سهروردي مهّد الدرب أمامه، كما وكان صدرا من أبرز الشرّاح والمعلّقين على السهروردي إيّاه.

وقد كان مـلّا صدرا، جنبًا إلى جنب، مع محمّد الشهـرزوري وقطب الدين الشيرازي مـن أبرز الشرّاح والمفسّريـن لمدرسة الإشراق. فكان صدرا إبّـان شرحه وبيانه لأعمال شيخ الإشـراق يظهّر الحكمة الإشراقيّة في نسـق جديد خاصّ، وكذا جعلها مبنًى أساس من مباني حكمته المتعالية.

وبالعـودة إلى ابـن سينا وإلى فلسفة المشّاء نجد، مجدّدًا، أنّ ملّا صدرا مدين بالكثير الكثير للمدرسـة المشّائيّـة، لا سيّما لابن سينا إيّـاه، لكنّه ينأى بنفسه عن هـذه المدرسة في مسائل جوهريّـة. فملّا صدرا نفسـه كان من مشايخ الفكر المشّائيّ، بـل وكان كتابه **شرح الهداية**، الـذي يحوي عرضًا لفلسفـة المشّاء، ولقرون عدّة، مصدرًا لتلاميـذ مدرسة ابن سينا شرقيّ العـالم الإسلاميّ[٢١]. ويبقى ملّا صدرا من أبرز المعلّقين علـى ابن سينا، وتعتبر حاشيته على كتـاب **الشفاء** من أفضل ما قُدّم في حقـل المتافيزيقيا حول هذا العمل الضخم. وعلى الرغم مـن أنّ مدرسـة الحكمة المتعاليـة مدينة بالكثير لمدرسـة المشّاء، لكن ثَمَّ فـوارق جذريّة بين المدرستَين سنأتي على ذكر أهمّها[٢٢].

(٢١) يُذكر أنّ كتاب **شرح الهداية** لملّا صدرا كان يُعدّ من أهمّ كتب الفلسفة الإسلاميّة وأبرزها مذ القرن الحادي عشر وحتّى القرن السابـع عشـر في شبه الجزيرة الهنديّة وأفغانستان على السواء، وهو، أي **شرح الهدايـة**، بمثابة ملخّص جامع للفلسفة المشّائيّة، وبات يُدرّس أكثر من كتب ابن سينا نفسه.

(٢٢) للمزيد عن التباين بين فسلفة ملّا صدرا وابن سينا، انظر مقدّمة السيّد جلال الدين الآشتياني، **سه رساله از صدر الدين الشيرازي** (مشهد: چاپخانه دانشگاه مشهد، ١٩٧٣).

تمتدّ جذور الاختلاف الجوهريّ بين مدرسة صدرا وابن سينا إلى اختلافهما في الطريقة التي عالجا أو فهما فيها الأنطولوجيا (أو علم الوجود). إذ يرى ملّا صدرا إلى الوجود باعتباره حقيقةً واحدةً مشكّكة، حقيقة تبقى هي هي، واحدة، على الرغم من مراتبها المختلفة، بخلاف ابن سينا الذي، على الرغم من إيمانه بأصالة الوجود في كلّ موجود، يرى أنّ وجود كلّ موجود مختلف عن وجود الموجود الآخر، وأنّ الاستواء إلى الوجود هو عمليّة من خارج تؤثّر في الأعراض فحسب. وبالتالي، فهو لا يؤمن بالحركات الجوهريّة التي تشكّل عضد الحكمة المتعالية. كما أنّ مفهوم «اضطراب الوجود»، على حدّ توصيف هنري كوربان، غائب عن رؤية ابن سينا للكون.

وحدى نفي ابن سينا للحركات الجوهريّة ومراتب الوجود به إلى رفض أفكار أفلاطون، وإلى رفض التراتبيّة العموديّة والعرضيّة للعقول، التي تشكّل حجر رحًى في تعاليم كلّ من صدرا والسهروردي. زد على ذلك أنّ ابن سينا ينفي إمكانيّة اتّحاد العاقل والمعقول ذلك أنّه ينفي مبدأ الحركات الجوهريّة.

وبعد، إذ يرى ملّا صدرا أنّ العشق مبدأ يجري في الكون مجرى الدم في العروق، وأنّه موجود في مراتب الوجود كلّها على السواء. لم تكن هذه الخاصّيّة (أو العقيدة) المعنويّة، الباطنيّة، بمنأىً عن كتابات ابن سينا، فقد كتب رسالةً بعنوان **رسالة في العشق**[٢٣]، لكّنه لا يختطّ هذا المبنى ولا يوضحه في أيّ كتابات أخرى له، وكذلك، لم يُدخل ابن سينا مبدأ العشق في قلب فلسفته المِتافيزيقيّة.

آل رفض ابن سينا مبدأ الحركة الجوهريّة وتوكيد ملّا صدرا له إلى اختلاف تعاطي الشيخين، اختلافًا كاملًا، مع مسائل الهيولى، وحدوث العالم وقدمه، ومسألة نموّ النباتات والحيوانات. وأدّى ذلك إلى إيجاد طيف واسع من التباينات بينهما بلحاظ الرؤية إلى العالم والفلسفة الطبيعيّة.

وبعد، إذ ثَـمَّ اختلاف جذريّ في معالجة النفسانيّة عند الشيخين، وهو اختلاف جليّ أكثر من أيّ فرع من فروع الفلسفة التقليديّة، يعالج ابن سينا النفسانيّة كفرع من

(٢٣) للمزيد، انظر،
E. L. Fackenheim, "A Treatise on Love by Ibn Sīnā," *Medieval Studies* 7, 1945, pp. 208-28.

الطبيعيّات، وهو يهتمّ، أكثر ما يهتمّ، باختطاط قوى النفس. أمّا ملّا صدرا، فعالج النفسانيّة باعتبارها فرعًا من فروع الإلهيّات، وبسط لها بعمق لا يضارع في حقل الفلسفة الإسلاميّة، بلحاظات أصل النفس ومنشئها، ونموّها، ومعادها الأخرويّ. ويختلف كلاهما في النظر إلى قوى النفس وقابليّاتها، وإلى النحو الذي يربط النفس بالقوى الخارجيّة والباطنيّة.

تمتاز الحكمة المتعالية عن علم الكلام والعلوم الدينيّة الأخرى بفوارق شتّى. فهي تعترف بالعلوم الدينيّة كلّها، وكذا تؤكّد تعاليمها، ولكن تدعو إلى شرح معانيها وتفنيدها لإماطة اللثام عنها. فعلى سبيل المثال، يؤكّد ملّا صدرا في تفاسيره وتعليقاته على **القرآن** كلّ مبادئ التفسير التي جاء بها المفسّرون الأوائل، لكنّه يذيّلها بالهرمنوطيقا خاصّته وبتأويلاته، علمًا أنّ تفاسير ملّا صدرا **للقرآن** تشكّل جزءًا لا يُستهان به من حكمته المتعالية. أمّا في حقل الفقه والشريعة، وعلى الرغم من أنّ ملّا صدرا يبسط لها في كتاباته، بإسهاب، ولم يكتب عملًا مستقلًّا يخوض في مسائل من هذا القبيل، فهو يدعو، وعلى الدوام، إلى سبر معانيها الباطنيّة. ينطبق هذا الكلام، أكثر ما ينطبق، في حقل العبادات في الإسلام، فقد حاول ملّا صدرا، وكذا تلاميذه من بعده، ابتداءً من الملّا محسن فيض الكاشاني والقاضي سعيد القمّي، وصولًا إلى الملّا هادي السبزواري، أن يُبحر في المعاني الباطنيّة للعبادات الراتبة في الإسلام، وولّفها جميعًا بباب بات يُعرف في ما بعد بـ«أسرار العبادات». ومن سمات الحكمة المتعالية أنّها على غرار الصوفيّة[٢٤]، وبخلاف الفلسفة الإسلاميّة الأولى، غاصت في المقاصد الباطنيّة للعبادات، فيما لم يتعمّق الفلاسفة المسلمون الأوائل، من مثل ابن سينا، بمقصد العبادات هذا التعمّق، كما عالجوها معالجةً فضفاضةً بعض الشيء[٢٥].

أمّا في ما خصّ علم الكلام، فقد عارض ملّا صدرا، وأتباعه من بعده، مناهجه

(٢٤) كتب كثير من المتصوّفة على غرار الغزّالي، ثمّ ابن عربي، فالشيخ العلوي، رسائل وتعليقات عن المعاني الباطنيّة للشعائر في الإسلام، على غرار الصلوات اليوميّة، والصوم، والحجّ. وسارت الحكمة المتعالية، في هذا السياق، على نهج المتصوّفة.

(٢٥) كتب ابن سينا، مثلًا، عن الحجّ إلى المراقد المقدّسة، مناقشًا أهمّيّة زيارة هذه الأماكن، والأثر الذي تُرخي به هكذا أعمال على النفس الإنسانيّة. فيما غاص القاضي سعيد القمّي في **أسرار العبادات** في المرامي الباطنيّة التي تصاحب الأعمال العباديّة التي يؤدّيها الحجيج في مكّة من مناسك وأدعية نصّت عليها الشريعة في الإسلام؛ للمزيد انظر، القاضي سعيد القمّي، **أسرار العبادات**، تحرير محمّد باقر السبزواري (طهران، انتشارات دانشگاه تهران، ١٣٣٩هـ. ش.)، علّق هنري كوربان على جزء من هذا الكتاب في،

H. Corbin, "Configuration du temple de la Ka'ba comme secret de la vie spirituelle," *Eranos-Jahrbuch*, 1967, pp. 79-166.

ومقارباتـه[٢٦]، علـى الرغم مـن تبحّرهم فيه. تحاكـي الحكمة المتعالية علـم الكلام بلحاظ أنّهـا تدرس المسائل التـي عالجها علم الكلام كلّها، في وقت لم يتطـرّق الفلاسفة المسلمون الأوائـل إلى مسائل علم الكلام الدينيّة. ورأى ملّا صـدرا، وتلاميذه كذلك، إلى المتكلّمين علـى أنّهم غير مؤهّلين أو جديرين بتنـاول المسائل التي تناولوها في مباحثهم. فهم، أي ملّا صـدرا وتلاميذه، عارضوا بشدّة مسألة التفويض عند المتكلّمين، وهي من السمات البارزة للمدرسة الأشعريّة. عالجت الحكمة المتعالية مسائل علم الكلام بلحاظ متافيزيقيّ لا كلاميّ، بمنهج يختلف اختلافًا كاملًا عن مناهج علم الكلام.

وصفـوة القول إنّ الحكمـة المتعالية تشكّل منظورًا مُحدثًا في الحيـاة الفكريّة الإسلاميّة، آلفـت في مبانيها مباني المدارس الفكريّة الإسلاميّـة الأولى كلّها. وواءمت هذه المدرسة بين مبـادئ الوحي، والحقائـق التي ينفذ إليهـا [العرفاء] عن طريق المكاشفـات والإشراق، من جهـة، وبين ضوابط المنطق والبرهان العقليّ، من جهة ثانية. هي عقيدة لا يمكن تشذيبها إلّا في فيء المدراس السابقة عليها، لكنّ المائز، كلّ المائز، بينها وبين المدارس الأخرى يكمن في فصلهـا المتافيزيقيا والنفسانيّة عن الفلسفة الطبيعيّـة[٢٧]، وكذا فصلها بين الأمور المتافيزيقيّة العامّة والأمور الخاصّة. تشكّل هذه المباني، مجتمعةً، جوهرانيّة المحتوى المتافيزيقيّ للحكمة المتعاليـة. إذ نجـد في الحكمة المتعالية، كمـا في كلّ مدرسة فكر أصيلـة، الحقائق المتافيزيقيّة عينها، التي كانت وستبقى هي هي، ولكن، في كلّ مرّة، تُقدّم بسبك جديد ذلك أنّها تنبعث مـن رؤية محدثة للحقّ. ونطالع كذلك في صـيرورة توالد هذه المدرسة الحقائق الخالدة لكن بعبقريّة تقارب الاحتياجـات والظروف للحظة زمنيّة محدّدة من حياة التراث الحيّ السيّال. وهذا ما آل إلى توالد مدرسة جديدة، تضرب جذورها في عمق التراث التي فاضت هي منه.

إن الحكمـة المتعالية إلّا أفنون جديدة نبت في شجـرة الفكر الإسلاميّ، رمت إلى تزويد الاحتياجات الفكريّة لجماعة مسلمـة في لحظة تاريخيّة وزمنيّة ما، استمرّت إلى يومنا هذا. توالد هذ الأفنون ليضمن سيّاليّة الحياة الفكريّة للتراث ليبقى حيًّا في دورة جديدة من وجوده

(٢٦) See S. H. Nasr, "al-Hikmat al-ilāhiyyah and Kalām," *Studia Islamica* **34**, 1971, pp. 139-49.

(٢٧) لم يفصـل مـلّا صدرا النفسانيّة والمتافيزيقيا عن الفلسفة الطبيعيّة في الطريقة التي عالج كلًّا منهما فيها فحسب، بل فصل ملّا صـدرا في الطريقة التي تعاطى فيها مع المتافيزيقيا والنفسانيّة إمّا من دون الاعتماد على الفلسفة الطبيعيّة أو من خلال رصف براهينه على أرضيّة فيزيائيّة.

التاريخـيّ، نشـأت هذه المدرسة لتعـبّر، في التاريخ الإنسانيّ اللاحق، عـن تلك الفلسفة أو الحكمة التي هي خالدة كلّيّة في آن، هي الحكمة التي عبّر عنها الحكماء المسلمون بـ«الحكمة الخالدة»، أو هي «جاويدان خرد» في السياقات الفارسيّة.